صوت من العالم الآخر

[مهداة إلى روح أبي العلاء مؤلف رسالة الغفران]

للأستاذ نجيب محفوظ

— ١ —

مقدمة

[سودت هذه الصحائف يد ميت . كتبها بعد أن فارق الحياة واطمأن إلى مضجعه الأخير . ويبدو هذا — أول وهلة — غريبا لا يصدق ؛ ولكنه يبدو لأغرابة فيه إذا تذكرنا حكمة قدماء المصريين التي أملت عليهم أن يودعوا قبر الميت آثاره وما كان يحبه أو ينتفع به في دنياه ، كي تتمتع روحه — إذا زارت القبر وعادت الجسد ليلة بعد أخرى — بما كانت تتمتع به في دنياها من مسرات الحياة . فإن كان الميت كاتبا أو دعوا قبره — بطبيعة الحال — كتبه وأوراقه ، وربما تملت روحه بالكتابة كما كانت تفعل في الدنيا . وهذا ما يبدو أنه كان الواقع في الحال التي نحن بصددها . فقد اكتشفت في العهد الأخير مقبرة لكاتب اسمه توتى من كتاب الأسرة التاسعة عشرة ، عثر بها على مخطوط من البردى تدل القرائن على أن صاحب المقبرة — أو روحه على الأصح — كتبه على أثر الدفن مباشرة . وهو يحوى حقائق غريبة لا يدرى الحي عن أكثرها شيئا ولا عكن أن توضع موضع الاختبار والتجربة . وقد أثارت من الدهشة ما هز الأفئدة جيشاً . ويقتصر عملي على ترجمة هذا المخطوط العجيب دون تعرض للتفسيرات التي أثيرت حوله ، ولا للجدل الذي اكتنف هذه التفسيرات . وللقارىء أن يرى فيما جاء به رأيه ، بيد أنه ينبغي أن نذكر دائما أنها خطرات ميت . وإليك ترجمة هذا المخطوط] .

ترجمة المخطوط الهيروغليفي

يا إلهي ! ماذا يعوز هذا القبر من طيبات الحياة الفانية ؟ ! إنه قطعة من صميم الحياة حافلة بما لذّ وطاب . لقد حليت جدرانه بصور الجواري والخدم ، وفرش بأفخر الأثاث ، وأجل الرياش . وبه ما أشاء من أدوات الزينة والعطور والحلى ؛ وفيه مخزن مفعم بالحبوب والبقول والفاكهة . وها هي ذي مكتبتي حملت إليه بمجلداتها الحكمية ، وما يحتاجه الكاتب من الأوراق والأقلام . هي الدنيا كما عهدتها . ولكن هل ثمة طعم للدنيا في حواسي الآن ؟! أبي حاجة إلى متعة من متعها ؟ ! جهد ضائع ذلك الذي بذله الذين هيأوا هذه المقبرة . بيد أني لا أستطيع أن أنكر أمراً غريباً هو أنه ما فتئت نفسي تنازعني إلى القلم . يا عجبا ! ما لهذه الأوراق تناديني بسحرها المحبوب ؟ ! ألا يزال بي موضع لم يمح منه الموت منازع الضعف والهوى ؟ أقضيَ علينا — معشر الكتاب — أن تشقى بضاعتنا في الحياتين ؟ ! على أية حال لا يزال أمامي فترة انتظار أبدأ بعدها رحلتي الأبدية . فلأشغل هذا الفراغ بالقلم . فلطالما دان القلم الفراغ بالجميل .

رباه ! ألا زلت أذكر ذاك اليوم الذي فصل بين الحياة والموت من عمري ؟! بلى . في ذلك اليوم غادرت قصر الأمير قبيل الغروب ، بعد عمل شاق ، تعنائي فيه الجهد ، حتى قال لي الأمير « توتى ... كف عن العمل . ولا تشق على نفسك » . وكانت الشمس قد مالت نحو الأفق الغربي في سياحتها الأبدية إلى عالم الظلام ، ولآلىء من أشعتها المودعة تتقبض انتفاضة الاحتضار على صفحة النيل المعبود . فأخذت في طريق المعهود متسمتا شجرة الجميز في طرف القرية الجنوبي حيث يقوم بيتي الجميل .

يا آمون المعبود . ما هذا الألم في العظام والمفاصل ؟ ليس ما بي أثر من جهد العمل فلطالما واصلت العمل بلا انقطاع . ولطالما ثابرت وصبرت فغلبت الأعياء بالقوة والعزم . أما هذا الألم المضني ، أما هذه الرعشة المزلزلة ، فطارئ جديد ، امتلأت منه رعباً . أيكون ذاك الخبيث الذي لا يزل بجسم حتى يورده المهلكة ؟ انطويا طريق القرية بحسنك فما في جوارحي قوة تقبس من جمالك . واغرب يا طير السماء فما في صدر توتى المسكين حنان يناديك ، وأخذت في الطريق قلقاً متأوها . وعند عتبة البيت طالعني وجه زوجي رفيقة شبابي وأم أبنائي . فهتفت بي « توتى أيها المسكين . مالك تتقبض . ما لعينيك مظلمتين ... ؟ ! » فقلت لها محزوناً مكتئباً « يا أختاه .. وقع المحظور ... وحل الخبيث بجسم زوجك . هيئي الفراش ودثريني . ونادي الحكيم والأبناء والأحباب : قولي لهم إن توتى على فراشه يضرع إلى ربه . فاضرعوا معه . واسألوا له الشفاء ! » وحملتني التي تهواني على صدرها . وجاء الحكيم فجرعني الدواء

وأشار بأصبعه إلى السماء وقال لى : « توتى ... أيها الكاتب الكبير ! يا خادم الأمير الجليل ! أنت فى حاجة لرحمة الرب . فادعه من أعماق قلبك » . ورقدت لا حول لى ولا قوة . يا آمون المعبود جلت حكمتك ! ألم أصحب سيدى الأمير إلى الشمال فى جيوش فرعون ؟ ألم أشهد القتال فى صحارى زاهى ؟ ألم أحضر قادش مع الغزاة البواسل ؟ بلى أيها الرب . ونجوت من الرماة والعجلات والمارك . فكيف يتهددنى الموت فى قربتى المحبوبة الآمنة بين أحضان زوجى وأمى وأبنائى ؟ ! وغرقت فى أبخرة الحمى . واشتد الدوار برأسى ، وسال بلسانى الهذيان ، وشعرت بيد الموت ترتاد قلبى . ما أقساك أيها الموت ! أراك تتقدم إلى هدفك بقدمين ثابتتين وقلب صخرى ، لا تتعب ولا تنام ولا ترحم ، لا تهزك الدموع ، ولا تستعطفك الآمال . تدوس حبات القلوب ، وتتخطى الأمانى والأحلام . ثم لا تبدل سنتك ولو كان الفريسة فى ربيع العمر الزاهر . توتى فى السادسة والعشرين ذو بنين وبنات ، ألا تسمع ؟ ماذا يضيرك لو تركت أنفاسى تتردد فى صدرى ؟ دعنى ريثما أشبع من هذه الحياة الجميلة المحبوبة . إنها لم تسؤنى قط ولم أزهد فيها أبداً . أحببتها من أعماق الفؤاد ولا أزال على العهد . كانت الصحة طيبة والمال موفورا والآمال كبارا . ألم تحط بكل أولئك خبراً ؟ ومن حولى قلوب محبة ونفوس والهة ، أفلا تنظر إلى الأعين الدامعة ؟ كأنى لم أعش ساعة واحدة فى هذه الحياة الجميلة المحبوبة . ماذا رأيت من مشاهدها ؟ ما ذا سمعت من أصواتها ؟ ما ذا أدركت من معارفها ؟ ماذا ذقت من فنونها ؟ ماذا جربت من ألوانها ؟ أى فرص ستضيع غداً ؟ أى نشوات ستخمد ! أى عواطف ستهمد ! أى مسرات ستبيد ! ذكرت ذلك جميعه . ودارت بخلدى أشياء أخرى لا حصر لها ولا حد ، ما بين مفاتن الماضى وسحر الحاضر وأمانى المستقبل . وجرت أمام حواسى الورود والحقول والمياه والسحاب والمآكل والمشارب والألحان والأفكار والحب والأبناء وقصر الأمير وحفلات فرعون والرتب والنياشين والألقاب والفخر والجاه وتساءلت : أيمضى كل هذا إلى الفناء ؟ وانقبض صدرى أيما انقباض . وامتلأت حزناً وكمداً . وهتفت كل جارحة لى « لا أريد أن أموت » . وتتابعت جحافل الليل . فغلب النوم الصغار . ولبثت زوجى عند رأسى وأمى عند قدمى ، وانتصف الليل ونحن على حالنا . ثم استدار وأوغل فى الرحيل ، ثم بهتت ذوائبه بزرقة الفجر . هنالك داخلنى شعور غريب بالرهبة وتولانى إحساس بالخوف . وأطبق السكون وأنذر بشىء خطير . ثم شعرت بيد أبى تدلك قدمى وتقول بصوت متهدج « بنى ... بنى ! » وهتفت زوجى المحبوبة « توتى ... ماذا تجد ؟ » ولكنى لم أستطع جوابا . لاشك أن أمراً استثار جزعهما . ترى ماذا يكون ؟ هل لاح فى وجهى النذير ؟ وتحولت عيناى على غير إرادة منى نحو مدخل الحجرة . كان الباب مغلقاً بيد أن الرسول دخل ، دخل دون حاجة إلى فتح الباب . فعرفته دون سابق معرفة فهو رسول الفناء دون سواه . واقترب منى فى خطى غير مسموعة : كان مهيباً صامتاً مبتسما ذا جمال لا يقاوم سحره فلم تتحول عنه عيناى . ولم أعد أرى من شىء سواه . وأردت أن أضرع اليه ولكن لم يطاوعنى اللسان . وكأنى به قد أدرك نيتى الخفية . فازدادت ابتسامته اتساعا . فآنست منه رفقاً . ولم أعد أبالى شيئاً . انجابت عنى وساوس الليل وأحزانه وحسراته . وغفلت عن دموع من حولى . ووجدت نفسى فى حال من الاستهانة والطمأنينة لم أعهدها من قبل . سلمت فى محبة لا نهائية وتركت جسمى فى المعركة وحيداً ! رأيت — دون مبالاة ألبتة — دمى يقاوم فى عروقى ، وقلبى يدق ما وسعه الجهد ، وعضلاتى تنقبض وتنبسط ، وأنفاسى تتردد من الأعماق ، وصدرى يعلو وينخفض . وشعرت بالأيدى الحنون تسند ظهرى وتحيط بى . رأيت ظاهرى وباطنى رؤية العين بغير مبالاة ولا اكتراث . وقد تحول الرسول عنى إلى جسمى وأخذ فى مباشرة مهمته فى ثقة وطمأنينة والابتسامة لا تفارق شفتيه الجميلتين . وشاهدت نسمة الحياة المقدسة تذعن لمشيئته فتفارق القدمين والساقين والفخذين والبطن والصدر ، والدم من ورائها يجمد والأعضاء تهمد والقلب يسكت ، حتى غادرت الفم المفتور فى زفرة عميقة . سكن جسمى وصمت إلى الأبد . وذهب الرسول كما جاء دون أن يشعر به أحد . وغمرنى شعور عجيب بأنى فارقت الحياة . وأنى لم أعد من أهل الدنيا ...

للكلام بقية

نجيب محفوظ